نفحات من عبق السيرة النبوية

الدرس الحادي عشر

عناصر المحاضرة:

1. خروج النبي ﷺ إلى الطائف.
2. فقه كرامة نبينا ﷺ برحلتي الإسراء والمعراج.
3. أحداث رحلة المعراج لنبينا ﷺ في السماء.
4. وقفات مع ثلاث سور.

صبر نبينا صلى الله عليه وسلم على أصناف كثيرة من الآلام والمشاقّ والمحن، فقد آذاه المشركون، ورموه بالكذب، السِّحر، والكِهانة... وهو في كل ذلك صابر ثابت محتسب يبلغ رسالته ويدعو أمته.

كانت وفاة أبي طالب إحدى الصدمات الكبرى التي تلقَّاها رسول الله ﷺ في العام العاشر من البعثة، ولم تكن -في الحقيقة- الصدمة الأولى في هذا العام ولا الأخيرة! فقد بدأ العام كما ذكرنا في اللقاء الماضي، بخروج مرهق جدًّا من حصار الشِّعْب، ثم عانى رسول الله ﷺ من الضغط القرشي عليه وعلى عمِّه قبل موته، ثم كانت مصيبة موت أبي طالب كافرًا كما صوَّرنا، ثم توالت بعد ذلك المصائب تلو المصائب!

إنَّ قريشًا لم تتزيَّن قطُّ بالرفق أو المواساة بعد مصيبة موت كبير بني هاشم؛ بل إنَّها أظهرت الشماتة والسرور لهذه المصيبة، واجتمع رءوس الكفر والضلال سعداء؛ فقد جاءت فرصتهم لإيذاء النبي ﷺ، وقد صار الآن -في رؤيتهم- دون حماية؛ فعن عائشة رضي الله عنها أنَّ النبي ﷺ قال: «مَا زَالَتْ قُرَيْشٌ كَاعَّةً [متراجعة جبانة] حَتَّى تُوُفِّيَ أَبُوطَالِبٍ» [الحاكم (4243)].

ثم حدثت مصيبة أخرى عظيمة في هذه الفترة الزمنية العصيبة نفسها، وكانت من الصدمات التي لم ينسها رسول الله صلى الله عليه وسلم طَوَال حياته، ألا وهي مصيبة موت زوجته الوفيَّة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، ماتت زوجته العاقلة الرشيدة، الحازمة والتي كانت تؤيده وتنصره، ماتت وقت الأزمات، ماتت في العصرِ المكي يوم تألَّبت عليه الجاهلية، وقد كانت رضي اللهُ عنها ساعِدَه الأيمن.

خروج النبي ﷺ إلى الطائف:

لما اشتد البلاء على رسول الله ﷺ، من سفهاء قريش بعد موت أبي طالب، وخديجة رضي الله عنها، ولما زهدت قريش في الإسلام، وانصرفت عنه، رأى رسول الله ﷺ أن الدعوة في مكة لم تؤت أكلها، فبدأ يفكر بالخروج من مكة إلى بلد آخر، لعله يجد فيه قبولاً واستجابة لما جاء به من عند الله، ونصيراً يعينه على إبلاغ دين الله، فخرج رسول الله ﷺ إلى الطائف، حيث تقطن هناك قبيلة ثقيف، والطائف تبعد نحو ثمانين كيلوا عن مكة، فخرج ﷺ إلى الطائف سيراً على الأقدام ذهاباً وعودةً، ومعه مولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه، يبتغي الدعوة إلى الله تعالى، والإيواء ليبلغ رسالة ربه، والنصرة على قومه، والمنعة منهم،وكان خروجه ﷺ إلى الطائف في نهاية شهر شوال، سنة عشر من البعثة، ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى الطائف ، عمد إلى نفر من ثقيف ، هم سادة ثقيف وأشرافهم ، وهم إخوة ثلاثة : عبد ياليل، ومسعود ، وحبيب ، بنو عمرو بن عمير بن عوف، وعند أحدهم امرأة من قريش من بني جُمح، فجلس إليهم فدعاهم إلى الله، وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام، والقيام معه على من خالفه من قومه، فقال أحدهم : هو يمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك ،وقال الآخر : أما وجد الله أحداً أرسله غيرك ؟وقال الثالث : والله لا أكلمك أبدا ؛لئن كنت رسولاً من الله كما تقول ، لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام ،ولئن كنت تكذب على الله ، ما ينبغي لي أن أكلمك، فقام رسول الله ﷺ من عندهم وقد يئس من خير ثقيف ، وقد قال لهم: «إن فعلتم ما فعلتم ، فاكتموا علي»، وكره رسول الله ﷺ أن يَبْلُغ قومه خبر قدومه على الطائف، فلم يفعلوا وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم، يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس، وألجؤوه إلى حائط لعتبة بن

ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وهما فيه ، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه ، فعمد إلى ظل حبلة من عنب فجلس فيه ، وابنا ربيعة ينظران إليه ، ويريان ما يلقى من سفهاء أهل الطائف، فلما اطمأن في الحائط توجه إلى ربه قائلاً: « اللّهُمّ إلَيْك أَشْكُو ضَعْفَ قُوّتِي ، وَقِلّةَ حِيلَتِي ، وَهَوَانِي عَلَى النّاسِ، يَا أَرْحَمَ الرّاحِمِينَ ، أَنْتَ رَبّ المُسْتَضْعَفِينَ ، وَأَنْتَ رَبّي، إلى مَنْ تَكِلُنِي؟ إلى بَعِيدٍ يَتَجَهّمُنِي، أَمْ إلى عَدُوّ مَلّكْتَهُ أَمْرِي؟ إنْ لَمْ يَكُنْ بِك عَلَيّ غَضَبٌ فَلَا أُبَالِي، وَلَكِنّ عَافِيَتَك هِيَ أَوْسَعُ لِي ،أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِك الّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظّلُمَاتُ وَصَلُحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدّنْيَا وَالآخِرَةِ ، مِنْ أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَك ، أَوْ يَحِلّ عَلَيّ سُخْطُكَ، لَك العُتْبَى حَتّى تَرْضَى ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوّةَ إلّا بِك »،فلما رآه ابنا ربيعة عتبة وشيبة وما لقي، تحركت له رحمهما ، فدعوا غلاماً نصرانياً يقال له عداس، فقالا له : خذ قطفاً من هذا العنب ، فضعه في هذا الطبق ،ثم اذهب به إلى ذلك الرجل ، فقل له يأكل منه ، ففعل عداس ، ثم ذهب به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ ، ثم قال له : كل، فلما وضع رسول الله ﷺ يده فيه، قال : « بسم الله » ، ثم أكل ، فنظر عداس في وجهه ، ثم قال : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له رسول الله ﷺ: « ومن أهل أي بلاد أنت يا عداس؟ وما دينك؟» قال : نصراني ، وأنا رجل من أهل نينوى، فقال رسول الله ﷺ: «من قرية الرجل الصالح يونس بن متى ؟ »، فقال له عداس : وما يدريك ما يونس بن متى ؟فقال رسول الله ﷺ: « ذلك أخي، كان نبياً، وأنا نبي»، فأكب عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه ،فقال ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه : أما غلامك فقد أفسده عليك، فلما جاءهما عداس قالا له : ويلك يا عداس ، ما لك تقبّل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال: يا سيدي ، ما في الأرض شيء خير من هذا ، لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي، قالا له: ويحك يا عداس، لا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خير من دينه .

تابع خروج النبي ﷺ إلى الطائف:

ثم عاد رسول الله ﷺ من الطائف، وهو مهموم ومحزون، فلم يستفق إلا وهو بقرن الثعالب، جبل مطل على منى، عن عَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ قَالَ :« لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ العَقَبَةِ(مكانٌ مخصوصٌ في الطَّائف) إِذْ

عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إلى مَا أَرَدْتُ فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ فَنَادَانِي ، فَقَالَ : إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ ، ثُمَّ قَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، فَقَالَ : ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا» متفق عليه .

وقام ﷺ في تلك الليلة يصلي، فصرف الله إليه نفراً من الجن، فاستمعوا قراءته، ولم يشعر بهم الرسول ﷺ حتى نزل عليه قوله سبحانه: {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (29) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (30) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (31) وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (32)} [الأحقاف/٢٩-٣٢] .

ثم قدم رسول الله ﷺ مكة، وقريش أشد ما كانوا عليه من خلافه، وفراق دينه، فلما أراد ﷺ دخول مكة، قال له زيد بن حارثة رضي الله عنه: كيف تدخل عليهم وهم أخرجوك ؟فقال ﷺ « يا زيد، إن الله جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً، وإنه ناصر دينه، ومظهر نبيه»،ثم انتهى ﷺ إلى جبل حراء، فبعث رجلاً من خزاعة هو عبد الله بن أريقط إلى الأخنس بن شريق ليجيره فأبى، فبعث ﷺ إلى سهيل بن عمرو فامتنع من جواره، فبعث ﷺ إلى المطعم بن عدي ليجيره،فقال المطعم: نعم، وأجابه إلى ذلك، وقال لعبد الله بن أريقط: قل لمحمد فليأت، فرجع إلى رسول الله ﷺ فبات عنده تلك الليلة، فلما أصبح خرج المطعم بن عدي، وقد لبس سلاحه هو وبنوه ستة أو سبعة، فدخلوا المسجد الحرام، وقال لرسول الله ﷺ: طف، وأمر بنيه أن يكونوا عند أركان البيت لحماية الرسول ﷺ،ثم جاء أبوسفيان إلى المطعم بن عدي ، وقال له: أمجيرأم تابع؟ فقال المطعم: بل مجير، فقال أبو سفيان: إذاً لا نخفر ذمتك، قد أجرنا من أجرت، فجلس معه حتى قضى رسول الله ﷺ طوافه، فلما انصرف الرسول ﷺ

انصرفوا معه، ورجع أبو سفيان إلى مجلسه، وقد حفظ ﷺ للمطعم هذا الصنيع، وجهده في نقض الصحيفة الظالمة، فقال ﷺ: في أسارى بدر: «لَوْ كَانَ المُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ حَيًّا فَكَلَّمَنِي فِي هَؤُلاءِ النَّتْنَى لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ» أخرجه البخاري.

إن الداعي إلى الله يهمه فقط هداية الناس، وتعريفهم بالحق، مَن كانوا وحيث كانوا، فالله سبحانه بعث النبي ﷺ رحمة للعالمين في كل زمان ومكان، فإذا لم تستجب قرية ذهب إلى غيرها، وإذا امتنع شخص عن الإسلام ذهب إلى غيره، وإذا لم يقبل الكبير ذهب إلى الصغير:(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) [الأنبياء/١٠٧].

لقد كانت وقائع سيرة النبي صلى الله عليه وسلم مدرسة للصابرين، استلهموا منها حلاوة الصبر، وبرد اليقين، ولذة الابتلاء في سبيل الله، والصبر على طاعته والبعد عن معصيته، فلم يتغير صلى الله عليه وسلم ولم يتبرم أو يتسخط، وإنما استمد الصبر من تعلقه بالله وابتغاء ما عنده سبحانه وتعالى.

فقه كرامة نبينا ﷺ برحلتي الإسراء والمعراج:

الإسراء: رحلته ﷺ من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى في الشام.

والمعراج: رحلته ﷺ من المسجد الأقصى في الشام إلى سدرة المنتهى فوق السموات السبع.

والإسراء والمعراج تكريم للنبي ﷺ، ومعجزة باهرة له وعلامة جلية على نبوته، وهي من الآيات الخاصة بالنبي ﷺ، وهي من الآيات المكية التي وقعت للنبي ﷺ قبل الهجرة إلى المدينة بسنة.

والإسراء والمعراج وقعا في ليلة واحدة في اليقظة، بجسد النبي ﷺ وروحه، بعد عودته من الطائف، ولكن لم يتعين اليوم والشهر الذي وقعا فيه.

ومن تأمل سيرة الرسول ﷺ يرى أن ثمة ابتلاءات شديدة، وأحوالاً أليمة، وأموراً قاسية، حصلت للنبي ﷺ قبل الإسراء والمعراج بقليل، فموت أبي طالب الذي كان حصناً للنبي ﷺ أمام الكفار وناصراً، وموت خديجة رضي الله عنها سكن النبي ﷺ، وهجرة من هاجر من أصحابه إلى الحبشة

فراراً بدينهم، وخروجه ﷺ إلى الطائف داعياً أهلها إلى الإيمان فما كان منهم إلا أن رفضوه، وما جاء به، وعدم مبالاة قريش به وبما جاء به من الحق، وزيادة جُرأتهم عليه.

فلما اجتمعت هذه الصعاب الموجعة أكرمه الله تبارك وتعالى بالمعجزة الساطعة، والمكرمة العالية، الإسراء والمعراج، ليبين الله للناس أنهم إذا رفضوا نصر رسوله، وقبول دينه، فإن الله سيكرمه وينصره ويؤيده:﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[التوبة/٣٣].

وقد ذكر الله عز وجل الإسراء والمعراج في سورتين:

فذكر قصة الإسراء في سورة الإسراء، في قوله سبحانه: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء/١].

وذكر سبحانه قصة المعراج في سورة النجم، في قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (13) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (14) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (15) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (16) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (17) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (18)﴾ [النجم/١٣-١٨].

فبعد العِشاء من ليلة الإسراء والمعراج جاءه ﷺ جبريل، وشق صدره، ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست ممتلئ حكمة وإيماناً، فأفرغه في صدره، ثم أطبقه، وهذا هو الشق الثاني الثابت لصدره ﷺ بعد شق صدره في بادية بني سعد، ثم أتاه جبريل ﷺ بالبُراق، وهو دابة أبيض فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه، فركبه ﷺ إلى بيت المقدس، يصحبه جبريل ﷺ، فربط البراق بالحلقة التي يربط فيها الأنبياء،ثم دخل المسجد فوجد الأنبياء قد جُمعوا له، فصلى بهم ركعتين، ثم خرج فأتاه جبريل بإناء من خمر، وإناء من لبن، فاختار اللبن، فقال جبريل: أصبت الفطرة، ثم نُصب له المعراج الذي يشبه السلم، فصعد عليه بصحبة جبريل، الذي كان يطلب له فتح كل سماء فيفتح له، ثم التقى بالأنبياء في كل سماء، ثم وصل إلى البيت المعمور فوق السماء السابعة، ثم رُفع إلى سدرة

المنتهى، ثم فرض الله عليه وعلى أمته الصلوات الخمس، ورأى الجنة والنار،ثم عاد من السموات العلا إلى بيت المقدس بصحبة جبريل، ثم ركب البراق إلى مكة، ووصلها قبل الصبح.

أحداث رحلة المعراج لنبينا ﷺ في السماء:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ مَالِكِ بْنِ صَعْصَعَةَ رَضِيَ الله عَنْهُمَا أَنَّ نَبِيَّ الله ﷺ حَدَّثَهُمْ عَنْ لَيْلَةِ أُسْرِيَ بِهِ: «بَيْنَمَا أَنَا فِي الحَطِيمِ وَرُبَّمَا قَالَ فِي الحِجْرِ (والحَطيمُ والحِجرُ بمعنًى واحدٍ، وهو حِجْرُ إسماعيلَ عليه السَّلامُ) مُضْطَجِعًا إِذْ أَتَانِي آتٍ فَقَدَّ - قَالَ وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ فَشَقَّ - مَا بَيْنَ هَذِهِ إِلى هَذِهِ - فَقُلْتُ لِلْجَارُودِ(وهو ابنُ أبي سَبْرَةَ البصريُّ، وهو إلى جَنْبي، أي جالسٌ بجانبِهِ عِند سماعِ الحديثِ من أنس بن مالكٍ رضِيَ اللهُ عنه) وَهُوَ إِلى جَنْبِي مَا يَعْنِي بِهِ قَالَ: مِنْ ثُغْرَةِ نَحْرِهِ إِلى شِعْرَتِهِ وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ مِنْ قَصِّهِ إِلى شِعْرَتِهِ- فَاسْتَخْرَجَ قَلْبِي ثُمَّ أُتِيتُ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مَمْلُوءَةٍ إِيمَانًا فَغُسِلَ قَلْبِي ثُمَّ حُشِيَ ثُمَّ أُعِيد ثُمَّ أُتِيتُ بِدَابَّةٍ دُونَ البَغْلِ وَفَوْقَ الحِمَارِ أَبْيَضَ - فَقَالَ لَهُ الجَارُودُ(أي: لأنس بن مالكٍ): هُوَ البُرَاقُ يَا أَبَا حَمْزَةَ ؟ قَالَ أَنَسٌ: نَعَمْ - يَضَعُ خَطْوَهُ عِنْدَ أَقْصَى طَرْفِهِ، فَحُمِلْتُ عَلَيْهِ فَانْطَلَقَ بِي جِبْرِيلُ حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الدُّنْيَا فَاسْتَفْتَحَ فَقِيلَ: مَنْ هَذَا؟، قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُـحَمَّدٌ، قِيلَ وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ مَرْحَبًا بِهِ، فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ فَفَتَحَ فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا فِيهَا آدَمُ فَقَالَ: هَذَا أَبُوكَ آدَمُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ السَّلَامَ ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالِابْنِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، ثُمَّ صَعِدَ بِي حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الثَّانِيَةَ فَاسْتَفْتَحَ قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُـحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ، فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ فَفَتَحَ فَلَمَّا خَلَصْتُ إِذَا يَحْيَى وَعِيسَى وَهُمَا ابْنَا الخَالَةِ، قَالَ هَذَا يَحْيَى وَعِيسَى فَسَلِّمْ عَلَيْهِمَا، فَسَلَّمْتُ فَرَدَّا ثُمَّ قَالَا مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، ثُمَّ صَعِدَ بِي إِلى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ فَاسْتَفْتَحَ قِيلَ مَنْ هَذَا؟ قَالَ جِبْرِيلُ، قِيلَ وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ مُـحَمَّدٌ قِيلَ وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ نَعَمْ، قِيلَ مَرْحَبًا بِهِ فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ فَفُتِحَ فَلَمَّا خَلَصْتُ إِذَا يُوسُفُ، قَالَ: هَذَا يُوسُفُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، ثُمَّ صَعِدَ بِي حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الرَّابِعَةَ فَاسْتَفْتَحَ قِيلَ مَنْ هَذَا؟ قَالَ جِبْرِيلُ، قِيلَ وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ مُـحَمَّدٌ، قِيلَ أَوَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ نَعَمْ قِيلَ مَرْحَبًا بِهِ فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ فَفُتِحَ فَلَمَّا خَلَصْتُ إِلى إِدْرِيسَ قَالَ: هَذَا إِدْرِيسُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، ثُمَّ صَعِدَ بِي حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ

الخَامِسَةَ فَاسْتَفْتَحَ قِيلَ مَنْ هَذَا؟ قَالَ جِبْرِيلُ، قِيلَ وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ مُـحَمَّدٌ، قِيلَ وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ نَعَمْ، قِيلَ مَرْحَبًا بِهِ فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا هَارُونُ قَالَ: هَذَا هَارُونُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، ثُمَّ صَعِدَ بِي حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ السَّادِسَةَ فَاسْتَفْتَحَ قِيلَ مَنْ هَذَا؟ قَالَ جِبْرِيلُ، قِيلَ مَنْ مَعَكَ، قَالَ مُـحَمَّدٌ قِيلَ وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ، قَالَ نَعَمْ قَالَ مَرْحَبًا بِهِ فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا مُوسَى قَالَ: هَذَا مُوسَى فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، فَلَمَّا تَجَاوَزْتُ بَكَى، قِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: أَبْكِي لِأَنَّ غُلَامًا بُعِثَ بَعْدِي يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِهِ أَكْثَرُ مِمَّنْ يَدْخُلُهَا مِنْ أُمَّتِي، ثُمَّ صَعِدَ بِي إِلى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ قِيلَ مَنْ هَذَا؟ قَالَ جِبْرِيلُ، قِيلَ وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ مُـحَمَّدٌ قِيلَ وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ نَعَمْ، قَالَ مَرْحَبًا بِهِ فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ: هَذَا أَبُوكَ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، قَالَ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ السَّلَامَ، قَالَ: مَرْحَبًا بِالِابْنِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، ثُمَّ رُفِعَتْ إِلَيَّ سِدْرَةُ المُنْتَهَى فَإِذَا نَبْقُهَا مِثْلُ قِلَالِ هَجَرَ، وَإِذَا وَرَقُهَا مِثْلُ آذَانِ الفِيَلَةِ، قَالَ: هَذِهِ سِدْرَةُ المُنْتَهَى، وَإِذَا أَرْبَعَةُ أَنْهَارٍ، نَهْرَانِ بَاطِنَانِ، وَنَهْرَانِ ظَاهِرَانِ، فَقُلْتُ: مَا هَذَانِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: أَمَّا البَاطِنَانِ فَنَهْرَانِ فِي الجَنَّةِ، وَأَمَّا الظَّاهِرَانِ فَالنِّيلُ وَالفُرَاتُ، ثُمَّ رُفِعَ لِي البَيْتُ المَعْمُورُ، ثُمَّ أُتِيتُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ، وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ، وَإِنَاءٍ مِنْ عَسَلٍ، فَأَخَذْتُ اللَّبَنَ، فَقَالَ: هِيَ الفِطْرَةُ الَّتِي أَنْتَ عَلَيْهَا وَأُمَّتُكَ، ثُمَّ فُرِضَتْ عَلَيَّ الصَّلَوَاتُ خَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ، فَرَجَعْتُ فَمَرَرْتُ عَلَى مُوسَى فَقَالَ: بِمَا أُمِرْتَ؟ قَالَ أُمِرْتُ بِخَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ، قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تَسْتَطِيعُ خَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ، وَإِنِّي واللهِ قَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ، وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ المُعَالَجَةِ، فَارْجِعْ إِلى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ، فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا فَرَجَعْتُ إِلى مُوسَى فَقَالَ مِثْلَهُ، فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا، فَرَجَعْتُ إِلى مُوسَى فَقَالَ مِثْلَهُ، فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا، فَرَجَعْتُ إِلى مُوسَى فَقَالَ مِثْلَهُ، فَرَجَعْتُ فَأُمِرْتُ بِعَشْرِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، فَرَجَعْتُ فَقَالَ مِثْلَهُ، فَرَجَعْتُ فَأُمِرْتُ بِخَمْسِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، فَرَجَعْتُ إِلى مُوسَى فَقَالَ: بِمَ أُمِرْتَ؟ قُلْتُ أُمِرْتُ بِخَمْسِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تَسْتَطِيعُ خَمْسَ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، وَإِنِّي قَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ

المُعَالَجَةِ، فَارْجِعْ إلى رَبِّكَ فَاسْالهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ، قَالَ: سَالتُ رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ، وَلَكِنِّي أَرْضَى وَأُسَلِّمُ، قَالَ فَلَمَّا جَاوَزْتُ نَادَى مُنَادٍ: أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي، وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي» متفق عليه.

انتهاء الرحلتين عند سدرة المنتهى وتكذيب قريش:

ولما أصبح الرسول ﷺ في مكة بين قومه، أخبرهم بما أراه الله من آياته الكبرى، فاشتد تكذيبهم، وأذاهم له، وسخريتهم منه.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لمَّا كَانَ لَيْلَةُ أُسْرِيَ بي، وَأَصْبَحْتُ بِمَكَّةَ، فَظِعْتُ بِأَمْرِي، وَعَرَفْتُ أَنَّ النَّاسَ مُكَذِّبِي» فَقَعَدَ مُعْتَزِلًا حَزِينًا، قال: فَمَرَّ بِه عَدُوُّ الله أَبُوجَهْلٍ، فَجَاءَ حَتَّى جَلَسَ إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ كَالمُسْتَهْزِئِ: هَلْ كَانَ مِنْ شَيْءٍ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: «نَعَمْ» قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: «إِنِّي أُسْرِيَ بِيَ اللَّيْلَةَ»: قَالَ إلى أَيْنَ؟ قَالَ: «إلى بَيْتِ المَقْدِسِ» قَالَ: ثُمَّ أَصْبَحْتَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْنَا؟! قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: فَلَمْ يُرِهِ أَنَّهُ يُكَذِّبُهُ مخَافَةَ إِنْ يَـجْحَدَهُ الحَدِيثَ إِنْ دَعَا قَوْمَهُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ دَعَوْتُ قَوْمَكَ أَتُحَدِّثُهُمْ بِمَا حَدَّثْتَنِي؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «نَعَمْ»، قَالَ: هَيَّا مَعْشَرَ بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ، قَالَ: فَانْتَفَضَتْ إِلَيْهِ المَجَالِسُ وَجَاؤا حَتَّى جَلَسُوا إِلَيْهِمَا، قَالَ: حَدِّثْ قَوْمَكَ بِمَا حَدَّثْتَنِي، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنِّي أُسْرِيَ بِيَ اللَّيْلَةَ»، فَقَالُوا: إلى أَيْنَ؟ قَالَ: «إلى بَيْتِ المَقْدِسِ» قَالُوا: ثُمَّ أَصْبَحْتَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْنَا ؟ قَالَ : « نَعَمْ »، قَالَ : فَمِنْ بَيْنِ مُصَفِّقٍ ، وَمِنْ بَيْنِ وَاضِعٍ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ، مُتَعَجِّبًا لِلْكَذِبِ - زَعَمَ - قَالُوا : وَتَسْتَطِيعُ أَنْ تَنْعَتَ لَنَا المَسْجِدَ؟ - وَفِي القَوْمِ مَنْ قَدْ سَافَرَ إلى ذَلِكَ البَلَدِ وَرَأَى المَسْجِدَ - قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « فَذَهَبْتُ أَنْعَتُ ، فَمَا زِلْتُ أَنْعَتُ حَتَّى التَبَسَ عَلَيَّ بَعْضُ النَّعْتِ»،قَالَ : « فَجِيءَ بِالمَسْجِدِ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ ، حَتَّى وُضِعَ دُونَ دَارِ عَقِيلٍ - أَوْ عِقَالٍ - فَنَعَتُّهُ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ»، قَالَ : «وَكَانَ مَعَ هَذَا نَعْتٌ لَمْ أَحْفَظْهُ»، قَالَ :«فَقَالَ القَوْمُ : أَمَّا النَّعْتُ فوالله لَقَدْ أَصَابَ» أخرجه أحمد .

فقه الحكمة من رحلة الإسراء والمعراج:

ولما بلغ أبو بكر الصديق رضي الله عنه الخبر، صدَّق دون تردد.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما أسري بالنبي ﷺ إلى المسجد الأقصى، أصبح يتحدث الناس بذلك، فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه، وسعوا بذلك إلى أبي بكر رضي الله عنه فقالوا: هل لك إلى صاحبك يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس؟ قال: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: أو تصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح؟! قال: نعم، إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة.

⇦فلذلك سمي أبو بكر الصديق. أخرجه الحاكم.

⇦وقد رأى رسول الله ﷺ ربه بفؤاده، ولم يره بعينه.

عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: قُلْتُ لِعَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا: يَا أُمَّتَاهْ، هَلْ رَأَى مُـحَمَّدٌ ﷺ رَبَّهُ؟ فَقَالَتْ: لَقَدْ قَفَّ شَعَرِي مِـمَّا قُلْتَ، أَيْنَ أَنْتَ مِنْ ثَلَاثٍ مَنْ حَدَّثَكَهُنَّ فَقَدْ كَذَبَ: مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُـحَمَّدًا ﷺ رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ كَذَبَ، ثُمَّ قَرَأَتْ: "لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ "، " وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ الله إلا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ "، وَمَنْ حَدَّثَكَ أَنَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ فَقَدْ كَذَبَ ، ثُمَّ قَرَأَتْ: "وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا "، وَمَنْ حَدَّثَكَ أَنَّهُ كَتَمَ فَقَدْ كَذَبَ، ثُمَّ قَرَأَتْ: "يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ "الآية، وَلَكِنَّهُ رَأَى جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَام فِي صُورَتِهِ مَرَّتَيْنِ. متفق عليه.

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك؟ قال: «نورٌ أنَّى أرَاه» أخرجه مسلم

ولما أصبح رسول الله ﷺ من صبيحة ليلة الإسراء، جاء جبريل ﷺ حين زاغت الشمس، فبين له كيفية الصلاة وأوقاتها.

فأمر رسول الله ﷺ فنادى بأصحابه: الصلاة جامعة، فاجتمعوا فصلى به جبريل عليه السلام، وصلى الرسول ﷺ بالناس، وسميت تلك الصلاة الظهر؛ لأنها أول صلاة ظهرت، أو لأنها فُعلت عند قيام الظهيرة.

✉وكان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يصلون قبل فرض الصلوات الخمس:

جاء في "الموسوعة الفقهية" (27 / 52-53) :" أَصْل وُجُوبِ الصَّلاَةِ كَانَ فِي مَكَّةَ فِي أَوَّل الإِسْلاَمِ ؛ لِوُجُودِ الآْيَاتِ الْمَكِّيَّةِ الَّتِي نَزَلَتْ فِي بِدَايَةِ الرِّسَالَةِ تَحُثُّ عَلَيْهَا، وَأَمَّا الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ بِالصُّورَةِ الْمَعْهُودَةِ فَإِنَّهَا فُرِضَتْ لَيْلَةَ الإِْسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ " انتهى .

عن جَابِرِ بْن عَبْدِ الله رضي الله عنه قَالَ : جَاءَ جَبْرَائِيلُ إلى النَّبِيِّ ﷺ حِينَ زَالَتِ الشَّمْسُ، فَقَالَ : قُمْ يَا مُـحَمَّدُ فَصَلِّ الظُّهْرَ ، فَقَامَ فَصَلَّى الظُّهْرَ حِينَ زَالَتِ الشَّمْسُ ، ثُمَّ مَكَثَ حَتَّى كَانَ فَـيْءُ الرَّجُلِ لِلْعَصْرِ مِثْلَهُ ، فَجَاءَ فَقَالَ : قُمْ يَا مُـحَمَّدُ فَصَلِّ العَصْرَ ، فَقَامَ فَصَلَّى العَصْرَ ،ثُمَّ مَكَثَ حَتَّى غَابَتِ الشَّمْسُ ، فَقَالَ : قُمْ فَصَلِّ المَغْرِبَ فَقَامَ فَصَلاهَا حِينَ غَابَتِ الشَّمْسُ سَوَاءٌ ،ثُمَّ مَكَثَ حَتَّى ذَهَبَ الشَّفَقُ فَجَاءَهُ ، فَقَالَ : قُمْ فَصَلِّ العِشَاءَ فَقَامَ فَصَلاهَا ، ثُمَّ جَاءَهُ حِينَ صَدَعَ الفَجْرُ بِالصُّبْحِ ، فَقَالَ : قُمْ يَا مُـحَمَّدُ فَصَلِّ ، فَقَامَ فَصَلَّى الصُّبْحَ ، ثُمَّ جَاءَهُ مِنَ الغَدِ حِينَ كَانَ فَـيْءُ الرَّجُلِ مِثْلَهُ ، فَقَالَ : قُمْ يَا مُـحَمَّدُ فَصَلِّ الظُّهْرَ ، فَقَامَ فَصَلَّى الظُّهْرَ، ثُمَّ جَاءَهُ حِينَ كَانَ فَـيْءُ الرَّجُلِ مِثْلَيْهِ ، فَقَالَ : قُمْ يَا مُـحَمَّدُ فَصَلِّ العَصْرَ ، فَقَامَ فَصَلَّى العَصْرَ، ثُمَّ جَاءَهُ المَغْرِبَ حِينَ غَابَتِ الشَّمْسُ وَقْتًا وَاحِدًا لَمْ يَزُلْ عَنْهُ ، فَقَالَ : قُمْ فَصَلِّ المَغْرِبَ، فَصَلَّى المَغْرِبَ ، ثُمَّ جَاءَهُ العِشَاءَ حِينَ ذَهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الأَوَّلُ فَقَالَ : قُمْ فَصَلِّ، فَصَلَّى العِشَاءَ، ثُمَّ جَاءَهُ الصُّبْحَ حِينَ أَسْفَرَ جِدًّا ، فَقَالَ : قُمْ فَصَلِّ الصُّبْحَ ، ثُمَّ قَالَ : مَا بَيْنَ هَذَيْنِ كُلُّهُ وَقْتٌ.

أخرجه أحمد والحاكم.

وكانت الصلاة عندما فرضها الله تعالى على النبي ﷺ وأمته ليلة الإسراء ركعتين الظهر والعصر والعشاء والفجر، والمغرب ثلاثاً، ثم هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ففرضت أربعا، وتركت صلاة السفر على الأولى.

عن عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: (فَرَضَ الله الصَّلَاةَ حِينَ فَرَضَهَا رَكْعَتَيْنِ رَكْعَتَيْنِ، فِي الحَضَرِ وَالسَّفَرِ، فَأُقِرَّتْ صَلَاةُ السَّفَرِ، وَزِيدَ فِي صَلَاةِ الحَضَرِ). متفق عليه.

✉فالصلوات الخمس فرضت ليلة الإسراء ركعتين ركعتين، إلا المغرب فثلاث، ثم زيدت بعد الهجرة إلا الفجر لطول القراءة فيها، وصلاة المغرب لأنها وتر النهار.

وكان ﷺ يصلي بمكة إلى بيت المقدس، ويجعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس، حتى هاجر، ثم نزل الوحي بعد ستة عشر شهراً بتحويل القبلة إلى الكعبة، كما قال سبحانه:(قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ) [البقرة/١٤٤].

وليلة الإسراء والمعراج لم يعرف يومها ولا شهرها، ولا عامها بالتحديد، فليست لها أفضلية على سائر الليالي في العمل، فلا يشرع في تلك الليلة مزيد عبادة، سواء كانت تلك العبادة ذكراً، أو صلاة، أو صدقة، أو عمرة أو غيرها.

وفي الإسراء والمعراج آيات وأحكام، فقد أظهر الله به قدرته في نصر أوليائه، وإكرامه لهم، وفي ترحيب أهل السموات بالرسول ﷺ دليل على استحباب تلقي أهل الفضل بالبشر والترحيب، والثناء، والدعاء، وبذل النصيحة لمن يحتاج إليها وإن لم تُطلب منه، وفيه بيان لأهمية الصلاة في الإسلام، فقد فرض الله جميع الأحكام بواسطة جبريل ﷺ، وفرض الصلاة على الرسول ﷺ وأمته مباشرة بلا واسطة، وفي الإسراء والمعراج تمحيص للناس، فمن كان مؤمناً صدق وثبت وزاد إيمانه، ومن كان متردداً ضعيفاً انتكس وارتكس،فالدين ليس بالعقل، وإنما بالوحي والنص، فمن نَوَّر الله قلبه قدم الوحي على العقل، وفي مقدمة هؤلاء أبو بكر الصديق رضي الله عنه الذي آمن وصدق بخبر الإسراء والمعراج:(وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) [الزمر/٣٣] .

وهناك ثلاث سور متتالية في المصحف وقد نزلت بنفس هذا الترتيب على الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، أمر نادر أن يتوافق ترتيب المصحف مع تسلسل النزول؟ " يونس، هود، ويوسف"، نزلوا في فترة واحدة، وهي من أحرج الفترات وأشقها، سبقها موت أبي طالب وخديجة ;وجرأة المشركين على ما لم يكونوا ليجرؤوا عليه في حياة أبي طالب وخاصة بعد حادث الإسراء وغرابته واستهزاء المشركين به وارتداد بعض من كانوا أسلموا قبله مع وحشة رسول الله بفقد خديجة رضي الله عنها وعمه وفي الوقت الذي تجرأت فيه قريش عليه وعلى دعوته ; وبلغت الحرب المعلنة عليه وعلى دعوته أقسى وأقصى مداها ; وتجمدت حركة الدعوة حتى ما كاد يدخل في الإسلام أحد من

مكة وما حولها وذلك قبيل أن يفتح الله على رسوله وعلى القلة المسلمة معه ببيعة العقبة الأولى ثم الثانية.

سورة يونس، ومعنى يونس: وهو من الوَنس والأنس، والأُنْس هو إزالة الوحشة، أول السورة يقول الله تبارك وتعالى فيه: ﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾ [يونس: 1]، وآخر آيةٍ في السورة يقول الله تعالى فيها ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ [يونس: 109]، إذاً كأن مجمل السورة يقول اتبع آيات الكتاب الحكيم - وهي القرآن - واصبر على ما يصيبك في سبيل ذلك فإن الطريق إلى الجنة صعب، وإن الجنة عروسٌ غالية المهر، فاصبر، اتبع آيات ربك الحكيمة، واصبر على ما يصيبك في طريق ذلك، حتى يحكم الله وسيكون حكمه بالخير والنصرة والعزة لمن اتبع آياته، ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ [يونس: 109]، وإن في ذلك لعظيم الأُنس وإزالة الوحشة من الدنيا، حتى وإن كنت وحدك سيؤانسك ربك وأعظم ما يكون هذا الأنس على أعظم ما تكون العبودية لله، كلما تعبدت لله بطاعته وتعظيمه، كلما كان الأُنس لديك أعظم، وليس النصر بالسلاح فقط بل الثبات في الدنيا، الاستخلاف، اطمئنان القلب، عدم الخوف والقلق، فانتظر ولا تيأس ففرج الله قريب، طالما هو آتٍ ففرجه قريبٌ سبحانه وتعالى، فمهما كان المؤمن يشعر بضعفه، وقلة نصيره، ولكنه عابدٌ لربه، معترفٌ ومقرٌّ بألوهية الله تبارك وتعالى، موحدٌ لله، فالله أنيسه وسيظهره على الحق.

سورة هود جاء فيها قصة نوح وحرصه على نجاة ابنه وعدم استجابته اشارة لحرص النبي ﷺ على إسلام عمه أبي طالب. د / محمد الربيعة.

ووقت نزول سورة يوسف وترتيبها في المصحف بعد سورة يونس وهود توقيت وموقع عجيب فبعد اشتداد الحزن على الرسول صلى الله عليه وسلم تنزل السورة، وبعد جولات مع إعراض المشركين في سورة يونس وهود تأتي سورة يوسف كالبلسم على القلب الحزين والمثقل بإعراض الناس عن الحق!!! هي السورة الوحيدة في القرآن، التي تقص قصة كاملة بكل لقطاتها، لذلك قال الله تعالى عنها: أنه سيقص على النبي (صلى الله عليه وسلم) " نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ"، فهي تبدأ برؤيا، وتنتهي بتفسير هذا الرؤية ... سورة مختلفة تماما.... وهي سورة بلا عذاب للقوم...بل

تنتهي بنجاح " النبي" وتحقيقه لغاياته بعيدا عن قومه، كما لو أن السورة تقول للنبي: النجاح ممكن، ومكة قد تتغير، لكن ليس بالضرورة يكون التغيير فيها أولا...

📝من الطريف أن (قميص يوسف):

- استُخدم كأداة براءة لإخوته ... فدل على خيانتهم.

- ثم استُخدم كأداة براءة بعد ذلك ليوسف نفسه مع إمرأة العزيز فبرَّأه ...!!

- ثم استخدم للبشارة ... فأعاد الله تعالى به بصر والده ...

📝نلاحظ أن معاني القصة متجسِّدة ... وكأنك تراها بالصوت والصورة ... وهي من أجمل القصص التي يمكن أن تقرأها ومن أبدع ما تتأثر به ... لكنها لم تجيء في القرآن لمجرد رواية القصص ...

وهدفها جاء في آخر سطر من القصة وهو:(إنَّهُ مَن يتَّقِ ويَصبر، فإنَّ اللهَ لا يُضيعُ أجرَ المُحسِنين)

فالمحور الأساسي للقصة هو:❶ ثق في تدبير الله ❷اصبر ❸لا تيأس.

الملاحظ أن السورة تمشي بوتيرة عجيبة ... مفادها أن الشيء الجميل، قد تكون نهايته سيئة والعكس ...!

❁ فيوسف أبوه يحبه، وهو شيء جميل، فتكون نتيجة هذا الحب أن يُلقى في البئر ...!

❁ ثم الإلقاء في البئر شيء فظيع ... فتكون نتيجته أن يُكرَم في بيت العزيز ...!

❁ ثم الإكرام في بيت العزيز شيء رائع ... فتكون نهايته أن يدخل يوسف السجن ...!

❁ ثم أن دخول السجن شيءٌ بَشِع ... فتكون نتيجته أن يصبح يوسف عزيز مصر ...!

الهدف من ذلك:

⇦أن تعلم المؤمن، إلى أن تسيير الكون شيءٌ فوق مستوى إدراكه، فلا تشغل نفسك به ودعه لخالقه يسيّره كما يشاء، وفق عِلمه وحِكمته.

⇦ فإذا رأيت أحداثاً تُصيبُ بالإحباط ولم تفهم الحكمة منها فلا تيأس ولا تتذمَّر، بل ثِق في تدبير الله، فهو مالك هذا المُلك وهو خير مُدبِّر للأمور.

⇦العجيب أنك في هذه السورة، لا تجد ملامح يوسف النبي، بل تجدها في سورة " غافر ".

- أما هنا فقد جاءت ملامح يوسف الإنسان، الذي واجه حياة شديدة الصعوبة منذ طفولته ولكنه نجح.

⇦ ليقول لنا: إن يوسف لم يأتِ بمعجزات، بل كان إنساناً عادياً ولكنه اتَّقى الله فنجح ...!

⇦وهي عِظة لكل شاب مُسلم مُبتَلى أو عاطل ويبحث عن عمل، وهي أمل لكل مَن يريد أن ينجح رغم واقعه المرير، هي أكثر السوَر التي تحدَّثت عن اليأس، قال تعالى: (فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا) (80)، (وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (87) (حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا) (110)، وكأنها تقول لكل مؤمن: إن اللهَ قادر، فلِمَ اليأس؟ إن يوسف رغم كل ظروفه الصعبة، لم ييأس ولم يفقد الأمل.

لقد نزلت هذه السورة في العام الذي اجتمعت البلاءات والأحزان على رسول الله صلى الله عليه وسلم في أشد أوقات الضيق وهو على وشك الهجرة وفراق مكة، هذه السورة كما قال ابن عطاء (من الآيات أن لا يسمع هذه القصة محزون مؤمن بها إلا استروح وتسري به مافيه) تفسير العز ابن عبد السلام ج2/ص110

❶السيرة النبوية بين المعرفة والواجب في ضـــوء القــرآن والســـنة.

❷وفاة أبي طالب، أشد أحزان الرسول أ.د. راغب السرجاني.

❸(رياض القرآن والسنة) د/علي الصلابي.